**العدالة الانتقالية في أفريقيا : تأملات في تجربة جنوب أفريقيا**

**الرباط , يناير 2019 م**

**فريدريك بوبينسر**

صباح الخير وشكرا لكم على توجيه الدعوة لي لحضور هذه الندوة وإتاحة الفرصة لي لمخاطبة هذا الجمع الموقر واستعراض تجربة المصالحة في جنوب أفريقيا خلال ال 25 سنة الماضية .

كما لا يفوتني أن أشكركم على كرم الضيافة وحفاوة الاستقبال الذي حظيت به خلال إقامتي في بلدكم الرائع.

أخاطبكم اليوم بصفتي خبيرة متمرسة في مجال الحوار والمصالحة , وكمواطنة من مواطني جنوب أفريقيا تبدي التزامها العميق بكل ما يوحد أبناء شعبنا ويلم شمل امتنا التي ما تزال تعاني من الانقسامات .

وانطلاقا من روح الاعتراف , الذي يعتبر عنصرا حاسما لكنه بدا غائبا إلى حد كبير في رحلة العدالة الانتقالية في جنوب إفريقيا اليوم , وخاصة عندما يتعلق الأمر بالسكان البيض في جنوب إفريقيا , فإنني اقر بأنني واحدة من السكان البيض الذين استفادوا من سياسة التمييز العنصري . كما أنني أيضا ابنة أحد المحاربين الألمان القدامى في الحرب العالمية الثانية , ومن أم تنتمي لعائلة أفرادها كانوا لاجئين سياسيين من ألمانيا الشرقية , وهذا يعني أن مسألة التحولات والفترات الانتقالية تجري في دمي .

لقد مثل العام المنصرم الذكرى العشرين لتسلم الرئيس نيلسون مانديلا التقرير المقدم من لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب أفريقيا , وهذا العام احتفلت جنوب أفريقيا بمرور 25 عام من الانتخابات الديمقراطية وهذه الأحداث تعتبر مهمة وجديرة بالاحتفال بها وتأملها , وعند الاحتفال بها فإننا نذكر أنفسنا بالشوط الذي قطعناه منذ بزوغ فجر الديمقراطية وبدء مرحلة جديدة طويت فيها صفحة حقبة طويلة من الاضطهاد والقمع الممنهج امتدت لمئات السنين ضد السكان السود الذين يمثلون الأغلبية من قبل السكان البيض الأقلية .

ثم يجب علينا التفكير ملياً بما تحقق لحد الآن في هذا الصدد , والاهم من ذلك علينا التفكير بما ينبغي القيام به لضمان الاستمرار في الخروج من ظلام الماضي .

لقد جئت إليكم من بلد يمضي قدما في تقديم نموذج رائع للتعايش , نحن نتعلم كيف نعيش معاً ( هذا عنوان كتاب قام بتأليفه البروفيسور تشارلزفيلا فيسينيسو , المدير المؤسس لمعهد العدالة والمصالحة) , نحن نتعلم أن نحترم بعضنا البعض , كما نحاول أن نخرج من شبح الماضي المظلم الذي ما يزال يلقي بظلاله على مجتمعنا.

لقد اعتقد الكثيرون أن هذه ستكون رحلة سريعة وان لجنة الحقيقة و أجهزتها المعنية بالتعويض والعفو سوف تساعدنا على التغلب على التحديات , وبان قيام حكومة منتخبة ديمقراطياً من شانها أن تحول مجتمعنا إلى مجتمع مزدهر بشكل سريع .

وفي الذكرى المهيبة للفترة الانتقالية والأمل الذي جسدته فترة رئاسة الرئيس مانديلا , فإننا يجب أن نصفح عن أولئك الذين جعلوا الأمل يلقي بضلاله على ما كان ينبغي ان يكون واقعي وعملي .

ليس هناك أدنى شك في الدور الهام الذي قامت به لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب أفريقيا , بل وفي القارة برمتها , والتي تعتبر لحد الآن النموذج الأمثل و الانجح للجان الحقيقة في أفريقيا , وعلى الرغم من أنها لم تكن كاملة بشكل مطلق فان سبب ذلك يكمن في الطبيعة السائدة التي اخترق فيها الاستعمار والفصل العنصري مجتمع جنوب أفريقيا من جميع الجوانب على مر الأجيال , وكذلك نظراً لان العدالة الانتقالية تعتبر وليدة لحظتها آنذاك, فالكمال ليس معياراً مناسبا لهذا الأمر لان هذه رحلة يافعة وناشئة على كل حال .

لست هنا لأخبركم عن طبيعة اللجنة والنجاحات التي حققتها , وبأنه تم إنشائها بموجب قانون البرلمان من خلال قانون تعزيز الوحدة الوطنية والمصالحة لعام 1995م , وبان الرئيس نيلسون مانديلا قام بتعيين رئيس الأساقفة ديزموندتوتو رئيسا لها , والراحل فوراني نائبا له , وإنهم حصلوا على دعم كبير من قبل فريق بارز حظي بموافقة شعبية وهذا الفريق يتألف من كوكبة كبيرة من المندوبين والمحققين والباحثين والمترجمين , وبأنه تم الاستماع لأكثر من 20000 شهادة أثناء عمل اللجنة في جميع أنحاء البلاد والتي رافقها وسائل إعلام لسماع الحقيقة عن كثب عما قام به الفصل العنصري من تدمير لنسيج مجتمعنا , وبأنه تم استلام أكثر من 7000 طلب عفو لكنه لم يتم منح العفو إلا ل 800 فقط , وبأنه تم دفع تعويضات مرة واحدة لأولئك الذين أدلوا بشهاداتهم .

نحن نعلم هذا , وقد تم مناقشة ذلك وتحليله والكتابة عنه بشكل مستفيض , وعلى الرغم من أننا ما زلنا نحذر من انه لا يوجد مقاس واحد يناسب كل منهج أو طريقة للتعامل مع الماضي , فإنني أخشى من أننا مازلنا نفعل ذلك في كثير من الأحيان ونقوم بنسخ ولصق العناصر الرئيسية لتجربة جنوب أفريقيا في المصالحة من والى سياقات أخرى دون أن نتساءل أو نتحقق بطريقة نقدية إلى أين يسير البلد الآن .

وبالأحرى , فإنني اعتقد انه من المهم وباعتبارنا مفكرين أفارقة في مجال العدالة الانتقالية أن ننظر إلى ما يجري اليوم في جنوب أفريقيا اليوم من تزايد عدم المساواة وزيادة الاضطرابات المدنية وتصاعد وتيرة الاحتجاجات ووجود مستويات عالية من الفساد وتدني مستوى الخدمات والمظاهر غير المألوفة للعنف , وان نحاول أن نفهم ما الذي كان ينبغي فعله عقب تأسيس لجنة الحقيقة والمصالحة من اجل بناء جنوب أفريقيا على نحو أفضل .

اسمحوا لي أن أتطرق إلى واحدة من المجالات بالكاد تم الحديث عنها في مداولاتنا التي جرت خلال الأيام الماضية والتي ينتابني شعور قوي تجاهها , حيث وأنني أدير مشروعا بحثيا دوليا حولها في معهد العدالة والمصالحة , وهي العلاقة بين مجال الصحة العقلية والدعم النفسي من جهة وبين بناء السلام والعدالة الانتقالية من جهة أخرى , وبالمناسبة وعلى الرغم من أن اهتماماتي في هذه المجالات نابعة من طبيعة عملي في الحوار والمصالحة في جنوب السودان حيث كان معهد المصالحة والعدالة يعمل هناك خلال السنوات العشر الماضية فإنني اشعر بان الفهم والاعتراف ومعالجة آثار الماضي على الصحة النفسية لدى سكان جنوب أفريقيا قد مُني بفشل ذريع في مرحلة ما بعد لجنة الحقيقة والمصالحة وما بعد مرحلة الديمقراطية .

دعوني أوضح ذلك :

يوجد في جنوب أفريقيا الملايين من السكان السود ذوي الغالبية العظمى يعانون من احد الأمرين :

الأول نتيجة للتجربة الجماعية للتعايش الذي كان حاصلا منذ أكثر من 400 عام حيث كان يُنظر إليهم ويتم التعامل معهم على أنهم مواطنين من الدرجة الثانية خلال فترة أنظمة العبودية والاستعمار والفصل العنصري , فيما لا تزال البحوث حول انتقال الصدمات بين الأجيال في جنوب أفريقيا ( بل وفي أفريقيا برمتها ) شحيحة للغاية , وبحسب بحوث معهد العدالة والمصالحة الذي يعمل في هذا المجال فان صورة الماضي البغيض وفظائع الماضي مازالت عالقة في أذهان مواطني جنوب أفريقيا حيث كان ينظر إليهم بدونية وتهميش .

وثانياً فان هذه الصدمة التاريخية فاقمتها الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة التي ما تزال سائدة في جميع أنحاء البلاد و نتج عنها ضغوط يومية بسبب ظروف المعيشة القاسية بسبب الفقر الذي تعاني منه المجتمعات وانتشار البطالة بشكل كبير ( بنسبة حوالي %27 على المستوى الوطني) وتدني مستوى الخدمات وظهور مستويات كبيرة من العنف الجنسي والعائلي وتنامي ظاهرة العصابات , وهذه العوامل والآلام مجتمعة خلقت مزيجا ساما فاقم من مستويات المعاناة .

وفي هذا السياق فان سؤالاً قد يطرح نفسه : لكن ماذا عن لجنة الحقيقة والمصالحة ؟

لقد تلقت لجنة الحقيقة والمصالحة " فقط " حوالي 21000 شهادة . وهذا يعني بان الأغلبية من سكان جنوب أفريقيا والذين قد عانى معظمهم بطريقة أو بأخرى من الظلم والتهميش الذي مارسه الفصل العنصري لم تتح لهم الفرصة للتحدث عن قصص معاناتهم والاستماع لها والاعتراف بتلك المعاناة والانخراط في الحوار اللازم لبدء رحلة المصالحة , وفي الواقع فانه ليس متوقعا أن تتعامل لجنة الحقيقة والمصالحة مع قضية الجانب النفسي والاجتماعي لشعب بأكمله, خاصة عندما تكون الجروح عميقة كما هو الحال عليه في جنوب أفريقيا . ولو تم تنفيذ توصيات تقرير لجنة الحقيقة والمصالحة فانه قد يتم تنفيذ بعض هذه التدابير الخاصة بقضية البعد النفسي والاجتماعي , ولكن في غياب معالجة هذا الوضع فإنني أجد الكثير والكثير من الناس في كيب تاون وحولها يعبرون عن يأسهم وفقدان الأمل ويرون أنفسهم بأنهم منسيين , ولديهم شعور عميق بان نضالهم وتضحياتهم التي قدموها أثناء نظام الفصل العنصري قد ذهبت سدى . علاوة على ذلك فقد وجد الباحثون أن العلاقة بين قول الحقيقة والشفاء النفسي والمشكلة أمر مشكوك فيه .

فبالنسبة لبعض الناس فان المشاركة في عمليات قول الحقيقة لها آثار ايجابية , في حين يرى البعض الآخر أن الآثار تكون سلبية , لأنه من المحتمل أن تفتح جروح نفسية تؤدي إلى زيادة الاكتئاب والقلق أو اضطرابات ما بعد الصدمة , ويرون بأنه ليس لقول الحقيقة تأثير كبير على الشعور بوجود العدالة والثار والعنف والانتقام وتحسن الآثار النفسية للصدمة .كما أنهم يرون بأنه ينبغي على صناع السياسة إعادة هيكلة عمليات المصالحة بطرق تقلل من التكاليف النفسية السلبية مع الاحتفاظ بمنافعها الاجتماعية الايجابية .

نحن نعلم جميعاً بان الصراع يعمل على إنهاك وتمزيق النسيج الاجتماعي الذي يحكم العلاقة بين أفراد المجتمع والقدرة على التعافي , لكن يجب علينا أن نفهم انه في أعقاب الصراعات فان أسباب الصراعات بين الأشخاص قد تظل قائمة , بل وانه قد تتفاقم نتيجة للعنف أثناء الصراعات . وعليه فان قدرة الأفراد والمجتمعات على مواجهة مثل هذه التجارب المؤلمة والتعاطي معها والتغلب عليها وكذا مواجهة الخوف وعدم الثقة تكون غالباً مثيرة للإعجاب ولكنها أيضا محدودة .

وكثيرا ما يرتبط انهيار استراتيجيات مواجهة التحديات مع الصدمة النفسية , لان الصراعات في الغالب تتسبب في تدمير الروابط الطبيعية والقواعد والأواصر بين الناس وداخل المجتمعات والتي من شأن هذه الروابط – في الأساس- تعزيز القدرة على التعايش والمرونة ومواجهة التحديات.

إن ترميم وإصلاح النسيج الاجتماعي الذي يربط بين الناس ويدعمهم داخل مجتمعاتهم يعتبر أمرا حيويا بالنسبة لأولئك الذين عانوا من أحداث مؤلمة وخطيرة , وبالتالي فان إعادة خلق الشعور بالارتباط والتعايش مع الآخرين أمرا ضروريا لبناء المصالحة .

ونظرا لان الصراعات تؤثر سلبا على الصحة العقلية للناس , كما أن وجود مستويات كبيرة من الصحة العقلية المتدنية يؤثر سلبا على قدرة الأفراد والمجتمعات على العيش والعمل بسلام وفاعلية أثناء وبعد الصراعات , وبالتالي فإنني أرى ومن اجل أن نكون أكثر صراحة وتألقا بان يتم دمج هياكل الدعم للصحة العقلية والنفسية والاجتماعية في جميع مستويات رحلة العدالة والمصالحة عقب انتهاء الصراع .

وعلى سبيل المثال فقد اظهر بحث حديث أجرته " قناتي " يتعلق بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي بان الصحة العقلية تعتبر عاملا رئيسيا مساهما في العديد من المواقف الكامنة التي تكرس استمرار دائرة الكراهية والعداوة بين الإسرائيليين والفلسطينيين , ويشير إلى أن ندرة خدمات الدعم النفسي في قطاع غزة ليست مشكلة إنسانية فحسب وإنما تعتبر عائقا أمام إحراز تقدم نحو المصالحة . والحال كذلك في جنوب أفريقيا فتصاعد العنف في العديد من المجتمعات يؤكد الحاجة الماسة إلى اتخاذ تدابير شاملة تعمل على تعزيز التكيف والتعايش وتقلل من خسائر الموارد الاقتصادية والاجتماعية , كما أنها تقلل من مفاهيم التهديد وتخفف من وطأة الاضطرابات العقلية .

وعلى هذا النحو , فإنني أود أن أؤكد انه كان ينبغي على جنوب إفريقيا أن تقوم بإنشاء مؤسسات يتم تكليفها للعمل لفترة طويلة بعد أن أنهت لجنة الحقيقة والمصالحة أعمالها , تكون مهمة هذه المؤسسات هي القيام بإشراك المواطنين بشكل استباقي وجماعي في حوارات تتعلق بتجاربهم وذكرياتهم عن الماضي , فمثل هذه المؤسسات لن يستفيد منها المشاركين والمستمعين فحسب , ولكن و في حال توثيق هذه المشاركات فان هذه العملية يمكن أن تساهم في توثيق الماضي بشكل شامل بحيث يمكن تعليمه للأجيال القادمة , ذلك لان الكثيرين منهم لديهم فهم ضئيل جدا عن مسار جنوب أفريقيا إلى الديمقراطية .

إن ضمان الارتباط البناء والمستمر مع الماضي بشكل مثالي من خلال خلق منصات ومنابر للحوار حول العرق والهوية العرقية على المستوى الجزئي والمتوسط والكلي قد يمنع بعض المحللين من قول أشياء مثل " لم تفشل المصالحة في جنوب أفريقيا , ولم يتم محاولة إفشالها " أو " انه لم يتم تحقيق العدالة بسبب وجود قدر كبير جداً من المصالحة , ولكن بسبب وجود قدر ضئيل منها " .

إن غياب الآليات والهياكل طويلة المدى , في جنوب أفريقيا , التي تضمن التنفيذ المستمر للمشاريع والفعاليات التي تحافظ على تذكر الماضي والحديث عنه , باعتبارها وسائل للتذكير بالماضي وبما تم تحقيقه وكذلك باعتبارها نجم هادي للمستقبل , من اجل أن تذكرنا بالوضع الذي كنا فيه في الماضي والذي لا نرغب بالعودة إليه مجدداً, كان بإمكانها أن تفعل الكثير للحيلولة دون الوصول إلى الوضع المتقلب الذي نعيشه الآن .

ولعل الميزة الوحيدة التي نعرفها بعض الشيء هي طبيعة التحديات التي نواجهها , فمنذ عام 2001 م , قامت المنظمة التي اعمل فيها بإجراء مسح للمصالحة في جنوب أفريقيا وهو عبارة عن استطلاع للرأي العام يتقصى الآراء حول المصالحة في جنوب أفريقيا ويقدم إحصاءات سنوية للحكومة والمجتمع المدني والسكان بشكل عام عن آراء المواطنين في جنوب أفريقيا حول المصالحة فيما بينهم والحكومة والمستقبل , وبحسب نتائج الاستطلاع حول السؤال المطروح وهو "مدى ثقة الناس بالمجموعات العرقية الأخرى" فقد أجاب 41% ممن شملهم الاستبيان ب " إلى حد ما " في حين أجاب 21% ب " ليس كثيرا , أو لا على الإطلاق " .

وعند سؤالهم عن عدد المرات التي تفاعل فيها الأشخاص – في الشهر الماضي – أو تحدثوا مع أشخاص من مجموعات عرقية مختلفة في اجتماعات أو فعاليات اجتماعية , فان 46% منهم أجابوا ب " نادرا " أو " أبدا " وأخيرا عند سؤالهم عما إذا كانوا يثقون بالحكومة الوطنية رد 28% منهم بالقول " إلى حد ما " و40 % أجابوا ب " ليس كثيرا جداً " أو " لا على الإطلاق " .

وبصفتنا متمرسين في هذا المجال فإننا ندرك أهمية بناء الثقة والقدرة على التفاعل والتواصل البناء بين الأشخاص كجزء من رحلة المصالحة . وفي هذا الصدد فان الطريق ما يزال طويلا أمام بلدي .

وليس لدي الوقت الكافي للحديث بالتفصيل عن المجالين الآخرين الذي اعتقد انه كان ينبغي علينا معالجتهما بحزم بعد عام 1994م وهذين المجالين هما التعليم والتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

لقد قمنا في جنوب أفريقيا بحملات تطالب بالتعليم المجاني , وفي نظري فانه يجب ألا تتوقف مطالبنا على التعليم المجاني فحسب والذي فشل في استيعاب الشباب ضمن سلم التوظيف ( نسبة البطالة حاليا في أوساط الشباب هي 38% ) , ولكن ينبغي علينا أن نطالب بالتعليم المجاني الجيد .

وعلى الرغم من أن جنوب إفريقيا لا تزال واحدة من دول العالم الأكثر إنفاقا على التعليم , إلا انه من المؤسف أن مخرجات وأعداد الشباب الذين يتم استيعابهم في سوق العمل لا يرتبط بالنفقات , ولو أننا قمنا بعد عام 1994م باعتماد نوعية وجودة التعليم الذي كان يتمتع به الطلاب البيض خلال حقبة الفصل العنصري وتعميمها في أنحاء البلاد فإننا سنستقبل الآن نسبة اكبر من الشباب الماهر في سوق العمل لدينا وهذا من شانه أن يساهم في القضاء على مستويات عالية جداً من الإحباط في أوساط الشباب غير القادرين على الالتحاق بمؤسسات التعليم العالي وسوق العمل مما يجعل من هذا الإحباط والاستياء بمثابة قنبلة موقوتة .

في الختام

لست متشائمة , ففي حياتي اليومية أيضا أرى الكثير من التغيرات تمنحني الأمل بان مجتمعنا يتغير , كما أن ما يجري من نقاش في الفترة الراهنة حول إعادة توزيع الأراضي يعتبر أمرا مشجعا , خاصة وانه لم يتم إحراز إلا القليل من التقدم بهذا الخصوص منذ عام 1994م , كما أود أن أقول إنني أول من يترنم ويشدو بعبارات المدح والثناء على مبادرات المصالحة التي جرت في جنوب إفريقيا لحد الآن .

ولكنه ينتابني شعور قوي انه ومن اجل مصلحة البلدان الأخرى التي تنوي اعتماد العدالة الانتقالية فان هناك حاجة للنظر بحذر وتروٍ إلى تجربة رحلة جنوب إفريقيا وان تتعلم من إخفاقاتها بقدر ما نتعلم من نجاحاتها .

**شكراً لكم .**